تولستوى في مدرسته

لقد آن أن أذكر للقارىء على سبيل الفكاهة والعظة ماوصف به تولستوى مدرسة شيدها هو على أساس الحرية قال : —

« يدخل المدرس الغرفة ، فيجد التلاميذ على الأرض ، بعضهم فوق بعض ، وهم يصيحون « ما أقل عددنا ! ألا تأتى البقية فتنضم الينا ! » ويستغيث واحد منهم « لاتضيقوا على أخناق أيها الصبيان » أو « لاتقتلعوا شعرى » فلا يجد آذانا مصغية ، ولا قلوبا واعية . وسرعان ماينادى المدرس باسمه ، قائلا يابطرس مر التلاميذ يرجعوا عنى ويتركونى وشأنى » . وما هى الا أن يفرغ المسكين من شكايته ، واستغاثته بالأستاذ ، حتى يصيح الغلمان ، « عم صباحا يابطرس » وهم فى لعبهم مستمرون . يتبع المعلم نفر قليل الى القمطر ، فيوزع عليهم بعض الكتب ، ويسأله بعضهم ، وهم رقود ، يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، أن يبسط اليهم ذراعيه بالكتب ، ويسارع اليه آخرون ، وقد علا صياحهم « أعطنى كتاب كذا أو كتاب الأمس . أو كتاب المؤلف الفلانى » ويبقى منهم اثنان طريحان على الارض فيدعوان المعلم الى أن يعطيهما كتبا ولكن يأمرهما بقية التلاميذ بالسكون وعدم الكلام .

يسود النظام ، ويهدأ التلاميذ ، ويوجهون عنايتهم الى كتبهم فيقرءون منها ماشاءوا ، حتى ينتهى الدرس كما بدىء . وآونة يستولى

التعب والقلق على التلاميذ ، فلا تميل أنفسهم الى العمل ، ولا يرغبون فيه ، ويغادر بعضهم الحجرة ، فيسألهم الاستاذ « ما الخبر ؟ » فيجيبه بعض التلاميذ « أنا ذاهبون الى منازلنا » فيقول « ماذا نعمل فى الدروس وقد بقى درس الغناء » فلا يردون عليه . ثم يتبعهم غيرهم قائلا « لقد انصرف التلاميذ وهم ذاهبون الى منازلهم » فيسألهم المعلم « من قال ذلك » فيقول التلاميذ « لقد ذهبوا » فيسألهم المدرس « وكيف ذلك ! »

فى هذا الوقت تأخذ المعلم الحيرة فلا يدرى ماذا يصنع ، ويزيد فى حيرته أن تقوم الحرب على قدم وساق بين تلميذ متخلف وآخر حضر ليأخذ قبعته . »

هذه نتيجة الحرية المطلقة فى التربية ، وأثر من آثار الغلو الممقوت ومجاوزة الحد وضيق الفكر . وما نتيجة الاستعباد والسلطان التام بأقل منها خطرا . وقد تلمس العلامة « أمندهولس » الأعذار لتلستوى وبين الأسباب التى دعت الى النتيجة السالفة الذكر حيث قال مامعناه « هل فكرة تربية التلميذ فى جو الحرية من أضغاث الأحلام ؟ ان تجاربى الواسعة ترشد الى أنها ليست من الاحلام فى شىء وما كنت لأنتظر من عالم فاضل ومرب واسع العقل كالاستاذ « آدمس » أن يغض الطرف عن تجارب تولستوى ويزدريها ولا يحلها المحل اللائق بها . أن رجال الشرطة الروسية أغلقوا المدارس المذكورة بالرغم مما كان لها من الأثر الصالح فى نفوس التلاميذ فقد أحيت فيهم قوة النشاط ، وزادت مقدرتهم ، وحببت اليهم العمل . ولذا بحثنا عن السبب

فى الخيبة ـ اذا اعتبرنا تلك خيبة ـ وجدناه أن تولستوى لما كان شديد الثقة فى الطبيعة الانسانية، منح التلاميذ حرية تامة بعد أن طال عليهم المقام تحت ضغط شديد فلم يحسنوا استعمالها ولم يقفوا عند حد مناسب فكانوا كمن طال عليه المقام فى قاعة مظلمة ثم دفع به فجأة الى ضوء الشمس اللامع وان كثيرا من المربين قد جرب فكرة الحرية وأنت تجاربهم بنتائج عظيمة ومن هؤلاء السيدة مريا منتسورى والعلامة هو مرلين »

ولقد آن أن نوفق بين هذه الآراء ونستخلص منها مذهبا معتدلا نتمسك به فى أمور التعليم : ـ

ان الطفل عاجز عند ولادته لا يستطيع القيام بحاجته ولم تحنكه التجارب وليس له خبرة بالحياة فلا بد من تعهده وارشاده ووضع حد لأعماله لا يتعداه حتى يصل الى كماله المطلوب ولو ترك وشأنه لكان فريسة لغرائزه الشهوانية وميوله المنحطة قال بعض الالمانيين « لاشك فى أن للوالدين الحق فى تقييد أبنائهم وأنى لأحترم حرية غيرى لانى اعتبره انسانا كاملا خلقا وخلقا ولا سبيل الى الوصول الى آماله فى الحياة الا اذا كان له من الحرية نصيب ولست بالحكم فى أموره لأنه مثلى أما الطفل فناقص لابد من تعهده وغرس الفضيلة فى نفسه وعلى هذا تقييد الصغير واجب وترك الحرية للكبير محتم الا أن ذلك التقييد لا مسوغ له الا اذا خيف استعمال الحرية فيما يعود بالضرر لا غير وكل تقييد سوى هذا لا مبرر له

أن الصبي لا يعيش منفردا منعزلا عن الناس وكثيرا ما تتضارب مصلحته الفردية مع المصلحة العامة هذا الى أنه فى جماعة ذات نظام خاص ولها آداب وطرائق فى الحياة وعادات ودين ورثتها عن السلف فكل شيء ينافى الآداب أو يخل بالمروءة أو يدعو الى فساد الحياة الاجتماعية يجب أن نحول بين الناشئين وبينه فينبغى أذن أن يشجع الصبي على حرية العمل والفكر والقول الا اذا كان من وراء ذلك خطر

كثيرا ما سمعنا بعض الناس ينادى بصوت جهير أن امنحوا الاطفال حقوقهم ولكن هذه جملة عامة ذات تفسيرات مختلفة فان أرادوا بحقوق الاطفال الحرية المطلقة فذلك مالاسبيل اليه لما قدمنا وأن أرادوا احترام ارادتهم ومحبتهم وأرشادهم فذلك ما ندعو اليه فالانسانية التى نرى مظهرها العقلى فى مهد الطفولة كما نرى الشمس عند بزوغها من مهدها أو الزهرة عند تفتح أكمامها يجب أن نحترم ونملأ هيبتها القلوب ولكن ليس من الحكمة فى شيء ما يميل اليه بعض الآباء من التساهل الذى يئول بالناشئين الى الخراب العاجل ولعلهم يذكرون مايقول الشاعر العربى

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

أن سيطرة الآباء والمدرسين لابد أن تكون مشوبة بالشفقة تشعر بثقة كثيرة بالتلميذ حتى تبعث على احترامه لنفسه واحلالها المحل اللائق بها وليس شيء أضر بالناشيء من عدم الثقة به وردعه

وزجره وتقريعه والحط من قيمته لأنه اذا هانت عليه نفسه لجأ الى مالايحمد ولم يبال بالنقد ولا الأرشاد فالنفس ما دامت كبيرة عظمت آمالها فى الحياة وتعب فى مرادها الجسم

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الاجسام

يقولون لامعنى للحرية بدون واجب ولا للطاعة اذا لم يكن هناك اختيار وهذا بين لأن الناس انما يتمايزون عند قيامهم بالاعمال التى تعهد اليهم والرجل الذى لايخضع لواجب ولا يجيب صوت الحق ولا مايملى عليه ضميره الطاهر ودينه المقدس لاقيمة له وانا اذا حرمنا على الناس الاختيار ومنعناهم حرية التصرف سلبناهم حقا طبعيا ألهيا وجعلناهم أشباحا يقلبها الانسان كيف شاء يقول الشاعر العربى

لاترجع الانفس عن غيها مالم يكن منها لها رادع

ولا شك ان هذا بيت مملوء بالحكمة وحبذا لو كان للمدرسين أن يتمسكوا به فى دروسهم وجميع أعمالهم

ان بعض الناس قد يلجأ الى الشدة حبا فيما يسميه بالنظام ولاشك أنه لم يفهم معنى هذه الكلمة فان النظام لايحرم على التلاميذ الحركة والتنقل فى حجرة الدراسة مادام ذلك يتفق مع المصلحة العامة وقد قالت السيدة موريا منتصورى « ان حجرة تتنقل فيها الصبيان بعقل وروية وعلى مقتضى المصلحة من غير أن يصدر عنهم مايقلق الراحة أو ينافى الآداب لحجرة دراسية يتمثل فيها النظام بأجل معانيه » ولهذه المناسبة أذكر أن هذه السيدة تشنع على المدارس فى الوقت الحاضر وتعتبرها

سجونا وعقبات تحول دون نمو الطفل وتأسف شديد الاسف لأن بعض العلوم الحديثة والتجارب العلمية كانت وسيلة لذلك فللكرسى وللقمطر مقياس خاص وكلاهما ثابت فى الارض والتلميذ بينهما كأنه قطعة حجر لايشعر بشىء ولا يبالى بالضغط وليس الضغط الفكرى بأقل من الضغط المادى

من الحزم أن نسمح للتلاميذ بأن يكون لهم نصيب فى ادارة المدرسة وأعمالها ولا سيما مايختص بالألعاب ولا شك أن تجاربهم فى مثل هـذه الحالة ستكون منبعا من مائه يستمدون اذا خرجوا الى الحياة العملية الاجتماعية ـ من الحزم أن نشجعهم على اختيار المواد الدراسية التى تناسب مواهبهم الطبيعية وان نبعث فيهم جهاد دراستها بجد واخلاص وتطبيقها على أمور الحياة ؟

محمد على المهروب

مدرس تربية بدار العلوم